من دفائن رسائل الجاحظ

Encore des Epistoles de Djâhizh.

رسالة في اثبات امامة امير المؤمنين
علي بن ابي طالب عليه السلام
للجاحظ

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من اعتزل الشك ، والظن ، والدعوى ، والاهواء ، واخذ باليقين والثقة من طاعة الله ، وطاعة رسوله صلعم ، وباجماع الامة بعد نبيها عليه السلام ، مما تضمنه الكتاب والسنة ، وترك القول بالاراء ، فانها تخطى وتصيب ، لان الامة اجمعت ان النبي صلى الله عليه وآله ، شاور اصحابه في الاسرى ببدر ، واتفق رأيهم على قبول الفداء منهم ، فانزل الله تعالى: « ما كان لنبي حتى يكون له اسرى » ، الآية .

فقد بان لك ان الرأي يخطىء ويصيب ، ولا يعطي اليقين ، وانما الحجة الطاعة لله ولرسوله ، وما اجمعت عليه الامة من كتاب الله ، وسنة نبيها ، ونحن لم ندرك النبي ، ولا احداً من اصحابه الذين اختلفت الامة في حقهم ، فنعلم ايهم اولى ، ونكون معهم كما قال تعالى : وكونوا مع الصادقين ونعلم ايهم على الباطل فنجتنبهم ، وكما قال تعالى : والله اخرجكم من بطون امهاتكم لاتعلمون شيئاً . حتى ادركنا العلم فطلبنا معرفة الدين واهله ، واهل الصدق ، والحق ، فوجدنا الناس مختلفين يبرأ بعضهم من بعض ، ويجمعهم في حال اختلافهم فريقان: احدهما قالوا ان النبي صلى الله عليه وآله ، مات ولم يستخلف احداً ، وجعل ذلك الى المسلمين يختارونه ، فاختاروا ابا بكر . والآخرون قالوا : ان النبي صلى الله عليه وآله ، استخلف علياً فجعله اماماً للمسلمين بعده ، وادعى كل فريق منهم الحق .

فلما رأينا ذلك ، وقفنا الفريقين لنبحث ونعلم المحق من المبطل ، فسألناهم جميعاً : هل للناس بد من وال يقيم اعيادهم ، ويجبي زكواتهم ، ويفرقها على مستحقيها ، ويقضي بينهم ، ويأخذ لضعيفهم من قويهم ، ويقيم حدودهم ،

فقالوا لا بد من ذلك . فقلنا : هل لاحد ان يختار احداً فيوليه بغير نظر في كتاب الله ، وسنة نبيه صلعم ؟ فقالوا : لا يجوز ذلك إلّا بالنظر . فسألناهم جميعاً عن الاسلام الذي امر الله به . فقالوا : انه الشهادتان ، والاقرار بما جاء من عند الله ، والصلوة ، والصوم ، والحج بشرط الاستطاعة ، والعمل بالقرآن يحل حلاله ويحرم حرامه . فقبلنا ذلك منهم لاجماعهم . ثم سألناهم جميعاً : هل لله خيرة من خلقه اصطفاهم واختارهم ؟ فقالوا نعم . فقلنا : ما برهانكم ؟ فقالوا : قوله تعالى : وربك يخلق ما يشاء ، ويختار ما كان لهم الخيرة من امرهم . فسألناهم من الخيرة ؟ فقالوا : هم المتقون . قلنا ما برهانكم ؟ قالوا : قوله تعالى . ان اكرمكم عند الله اتقاكم . فقلنا هل لله خيرة من المتقين ؟ قالوا نعم . المجاهدون ، بدليل قوله تعالى : فضل الله المجاهدين باموالهم وانفسهم على القاعدين درجة . فقلنا : هل لله خيرة من المجاهدين ؟ قالوا جميعاً ، نعم السابقون من المهاجرين الى الجهاد . بدليل قوله تعالى : لا يستوي منكم من انفق من قبل الفتح وقاتل . الآية . فقبلنا ذلك منهم لاجماعهم عليه ؛ وعلمنا ان خيرة الله من خلقه ؛ المجاهدون السابقون الى الجهاد . ثم قلنا : هل لله منهم خيرة ؟ قالوا : نعم . قلنا : من هم ؟ قالوا : اكثرهم عناء في الجهاد ، وطعناً وضرباً وقتلاً في سبيل الله ، بدليل قوله تعالى . من يعمل مثقال ذرة خيراً يره وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله . فقبلنا ذلك منهم ، وعلمنا ، وعرفنا ان خيرة الخيرة اكثرهم في الجهاد عناء ، وابذلهم لنفسه في طاعة الله ، واقتلهم لعدوه . فسألناهم عن هذين الرجلين : علي بن ابي طالب عليه السلام ، وابي بكر ، أيهما كان اكثر عناء في الحرب ، واحسن بلاء في سبيل الله ؟ فاجمع الفريقان على امير المؤمنين علي بن ابي طالب ، انه كان اكثر طعناً ، وضرباً ، واشد قتالا واذب عن دين الله ورسوله .

فثبت بما ذكرناه من اجماع الفريقين ، ودلالة الكتاب والسنة ، ان علياً عليه السلام افضل . وسألناهم ثانياً عن خيرته من المتقين ، فقالوا هم الخاشعون بدليل قوله تعالى : وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب . وقال تعالى : اعدت للمتقين الذين يخشون ربهم

ثم سألناهم : من هم الخاشون . قالوا : هم العلماء . لقوله تعالى : انما يخشى الله من عباده العلماء . ثم سألناهم جميعاً : من اعلم الناس؟ قالوا اعلمهم بالقول واهداهم الى الحق واحقهم ان يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً ، بدليل قوله تعالى: يحكم به ذوا عدل منكم . فجعل الحكومة الى اهل العدل . فقبلنا ذلك منهم ، ثم سألناهم عن اعلم الناس بالعدل من هو ؟ قالوا : ادلهم عليه . قلنا : فمن ادل الناس عليه ؟ قالوا اهداهم الى الحق ، واحقهم ان يكون متبوعاً ، ولا يكون تابعاً ، بدليل قوله تعالى : أفمن يهدي الى الحق احق ان يتبع . الآية .

فدل كتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، والاجماع ان افضل الامة بعد نبيها أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام ، لانه اذا كان اكثرهم جهاداً ، كان اتقاهم ، واذا كان اتقاهم كان اخشاهم ، واذا كان اخشاهم كان اعلمهم واذا كان اعلمهم ، كان ادل على العدل ، واذا كان ادل على العدل ، كان اهدى الامة الى الحق ، واذا كان اهدى ، كان اولى ان يكون متبوعاً ، وان يكون حاكما ، لا تابعاً ولا محكوماً عليه .

واجمعت الامة بعد نبيها انه خلف كتاب الله تعالى ذكره ، وامرهم بالرجوع اليه اذا نابهم امر ، والى سنة نبيه صلعم فيتدبرونهما ويستنبطون منهما مايزول به الاشتباه . فاذا قرأ قارئهم : وربك يخلق ما يشاء ويختار . فيقال لمباشتها . ثم يقرأ ان اكرمكم عند الله اتقاكم . وفي قراءة ابن مسعود ان خيركم عند الله اتقاكم . ثم يقرأ وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ من خشي الرحمن بالغيب . فدلت هذه الآية على ان المتقين هم الخاشون . ثم يقرأ حتى اذا بلغ الى قوله تعالى : انما يخشى الله من عباده العلماء ، فيقال له : اقرأ حتى ننظر ، هل العلماء افضل من غيرهم أم لا ؟ حتى اذا بلغ الى قوله تعالى : يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين اوتوا العلم درجات ، قيل قد دلت هذه الآية على ان الله تعالى قد اختار العلماء وفضلهم ورفعهم درجات ، وقد اجمعت الامة على ان العلماء من اصحاب رسول الله صلعم ، الذين يؤخذ عنهم العلم ، كانوا اربعة : علي بن ابي طالب عليه السلام ، وعبد الله بن العباس ، وابن مسعود ، وزيد بن ثابت رضي الله عنهم .

وقالت طائفة عمر بن الخطاب رضه : فسألنا الامة من اولى الناس بالتقديم ، اذا حضرت الصلوة ؟ فقالوا ان النبي صلعم ، قال : يؤم بالقوم اقرأهم ، ثم اجمعوا ان الاربعة كانوا أقرأ لكتاب الله تعالى من عمر ؛ فسقط عمر . ثم سألنا الامة : أي هؤلاء الاربعة اقرأ لكتاب الله وافقه لدينه ، فاختلفوا ، فوقفناهم حتى نعلم . ثم سألناهم : ايهم اولى بالامامة ، فاجمعوا على ان النبي صلعم قال: الائمة من قريش . فسقط ابن مسعود وزيد بن ثابت ، وبقي علي بن ابي طالب وابن عباس . فسألنا ايهما اولى بالامامة : فاجمعوا على ان النبي صلى الله عليه وآله ، قال : اذا كان عالمين فقيهين قرشيين ، فاكبرهما سناً ، واقدمهما هجرة . فسقط عبد الله بن العباس ، وبقي امير المؤمنين، علي بن ابي طالب، صلوات الله عليه. فيكون احق بالامامة لما اجمعت عليه الامة ،ولدلالة الكتاب والسنة عليه .

هذا آخر رسالة ابي عثمان عمر بن بحر الجاحظ . فضل الله الزنجاني

كلمة في هذه الرسالة الجاحظية

نحن لا نستغرب مقالة الجاحظ في تفضيل علي — ع — على غيره من الخلفاء الراشدين لانه كان يصح عليه قول الشاعر :« واقذف بنفسك حيث ترجو الدرهما » على ان الذي يقرأ شيئاً من كتابه العثمانية يظهر له تفضيله وتقديمه اسلام أبي بكر — رض — على اسلام « الامام علي» — ع — ونقضه فضائل علي — ع — واستهوانه افعاله الاسلام . وقد قال أبو جعفر الاسكافي المعتزلي فيه وفي مقالاته بكتابه نقض العثمانية . اما القول فممكن والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ فانه ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب وهو من دعوى الباطل غير بعيد فمعناه نزر وقوله لغو ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ، يقول الشيء وخلافه ، ويحسن القول وضده ، ليس له من نفسه واعظ ولا لدعواه حد قائم . وقال : « ان مثل الجاحظ مع فضله وعلمه لا يخفى كذب هذه الدعوى [هي عدم اعتراف علي لنفسه بالتقدم في الاسلام] وفسادها ، ولكنه يقول ما يقوله تعصباً وعناداً » . وعناه ابو جعفر — على ما ظهر لنا — « ومعتزلي قد نقض في الكلام وابصر في الاختلاف وعرف الشبه وموضع الطعن وضروب التأويل قد التمس الحيل في ابطال مناقبه [أي مناقب علي — ع —] ، تأول مشهور فضائله فمرة يتأولها بما لا يحتمل

ومرة يقصد ان يضع من قدرها بقياس منتقص » . وقال : « ينبغي ان ينظر اهل الانصاف هذا الفضل ويقفوا على قول الجاحظ والاصم في نصرة العثمانية واجتهادهما في القصد الى فضائل هذا الرجل وتهجينها ، فمرة يبطلان معناها ومرة يتوصلان الى حط قدرها فلينظر في كل باب اعترضا فيه . أين بلغت حيلتهما وما صنعا في احتيالهما في قصصهما وسجعهما . أليس اذا تأملتها علمت انها الفاظ ملفقة بلا معنى وانها عليها شجار وبلاء » . وقال : « لا اشك ان الباطل خان أبا عثمان ، والخطأ اقعده ، والخذلان أصاره الى الحيرة ، فما علم وعرف حتى قال ما قال » . وقال ابو جعفر في قول الجاحظ : « هذا هو الكذب الصراح والتحريف والادخال في الرواية ما ليس منها » . وقال : « ان أبا عثمان يجر على نفسه ما لا طاقة له به من مطاعن الشيعة » . وقال في كلام له : « هذا الكلام وهجر السكران سواء في تقارب المخرج واضطراب المعنى » . وقال : « نعجب من مذهب ابي عثمان ، ان المعارف ضرورة وانها تقع طباعاً ، وفي قوله بالتولد وحركة الحجر بالطبع حتى رأينا من قوله ما هو اعجب منه ، فزعم انه ربما يكون جهاد علي — ع — وقتله المشركين لا ثواب فيه لانه فعله طبعاً . وهذا أطرف من قوله في المعرفة وفي التولد » . وقال : « لقد اعطي ابو عثمان مقولا وحرم معقولا ان كان يقول هذا على اعتقاد وجد ، ولم يذهب به مذهب اللعب والهزل أو على طريق التفاصح والتشادق واظهار القوة والسلاطة وذلاقة اللسان وحدة الخاطر والقوة على جدال الخصوم (١) » . قلنا : وقد بلي الجاحظ من ابي جعفر الاسكافي بحجيج ذي مرة وحجج راسية .

مصطفى جواد

---

١) شرح ابن ابي الحديد « مج ٣ ص ٢٥٤ و٢٦٣ و٢٦٤ و٢٦٧ و ٢٦٨ و ٢٧٠ و٢٧١ و٢٧٢ و٢٧٥ و٢٧٦ و٢٧٩ .